بين الحلم والواقع

هناك خطورة كبيرة في عدم إدراك التباينات المعنوية لمراحل الدعوة، سواء في السيرة النبوية أو عند الدعاة إلى الله تعالى بعد ذلك، وينبني الخطر في العادة على عدم تمييز الكثير من الذين يستندون إلى السيرة كمرجعية بين مسمى المرحلة وحقيقتها.

مجموعة من الأسئلة قد تصلح هنا لتسهيل الإحاطة بالفكرة، أو على الأقل الدخول إليها:

ـ بماذا يمكن أن نفرق بين الضعف والتمكين؟

ـ هل قيام دولة إسلامية معناه التمكين والنصر المؤزر؟

ـ هل يمكن مقارنة أي تجربة إسلامية تقوم الآن بدولة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المدينة المنورة؟!!

إن الإجابة عن هذه الأسئلة قد يبدو للوهلة الأولى سهْلاً، أو على الأقل متيسراً، لكن الحقيقة غير ذلك، وبقدر ما استطاع الداعية أو القائد تحديد هذه الإجابة في عصره ومحيطه الزمكاني، بقدر ما كان ناجحاً في الحصول على رؤية يمكن أن ينبني عليها برنامجه الناجح..

ولا يختلف اثنان حول كون المدينة المنورة، وهي مرحلة قيام الدولة في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت مرحلة تمكين وفيها رأى المسلمون ما وعدهم الله ورسوله من «الفتح المبين» وانتشار الخير، وانكسار شوكة المعادين، لذلك لم يظهر النفاق في مكة بل ظهر في

المدينة، ففي مكة كان المسلمون ضعفاء، ولم يكن حالهم يغري بمغنم أو ينذر بمغرم، لذلك لم يدخل معهم في الدين الجديد إلا كل راغب في الدين لا غيره.. أما في المدينة فقد تغيرت الأوضاع، وصار الدخول في حوزة الإسلام معناه الانضمام إلى «الجماعة الأقوى» التي تكون المصلحة الدنيوية أيضاً في الانضمام إليها، ولذلك ظهر النفاق والمنافقون.

وقد كان المسلمون في أواخر هذه المرحلة، وفي أوائل عهد الخلافة الراشدة قد وصلوا في زحف الرحمة إلى أقصى الأرض.. وكان الواحد منهم يخوض اللجة على فرسه حتى إذا ألجم الماء الفرس قال هو: «لو أعلم أن خلف هذا الماء من يابسة لأتيتها».

إنها الصورة الأصدق والأدق تعبيراً عن فلول الفتح الذين انطلقوا من نقطة ليصلوا بما يحملون من خير إلى العالمين في أقاصي الديار، وكانوا كجوهرة تلقى في بركة ماء، ولا تزال دوائرها تتسع حتى تبلغ مداها ومنتهاها، ويخوض الواقف بفرسه في البحر ليقول ما قال، لقد كانت المدينة مرحلة التمكين فعلاً، وقد كان شعار المسلمين في دعوتهم للآخرين في مكة «من اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فعليها» هكذا دون تبعات على من كفر، أما في المدينة فكان الشعار «الإسلام، أو الجزية، أو القتال».

يعيش المسلمون اليوم في عالم يفوقهم عدداً بقرابة /٦/ أضعاف ويفوقهم عدة بأكثر من ذلك بكثير، ومن الخطأ أن يفكروا في أن تكون لهم في رمشة عين تلك الخلافة التي على منهاج النبوة، والتي تأخذ الجزية من الصين والهند وأمريكا والإتحاد الأوروبي، بكل ما تعنيه هذه المسميات من امتلاك لأسباب القوة.

ولو كان للمسلمين من القوة المادية ما يضاهي قوة أعدائهم، لكان

من الممكن غض النظر عن قلتهم العددية التي يقابل فيها الواحد منهم ستة من غيرهم من الذين يقتسمون معهم كوكب الأرض، لكن «هذه البصرة وهذه شعابها»، فأمام ما تمتلكه هذه الكيانات غير الإسلامية من برامج التسلح الرهيبة لا يمكن أبداً الحديث عن أخذ الجزية من الآخر، والواقع يقول ذلك، فرغم الهيمنة المطلقة للولايات المتحدة الأمريكية إلا أن هناك خطوطاً لا يمكن أن تتجاوزها في التعامل مع القوى العالمية المعتبرة، ذلك لأن هذا الامتلاك الواسع لأسلحة الدمار الشامل لا يعطي لأي قوة مهما كانت قدرة على إذلال القوى الأخرى أو إملاء ما لا يناسبها عليها... لذلك فإن الفكرة التي يحملها الكثير من الحالمين الإسلاميين، والمتمثلة بالدولة الإسلامية التي يدين لها الجميع، تماماً كما كان الأمر بالنسبة لدولة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت تقتحم على كسرى وقيصر العروش وتخير أهلها بين ثلاث: الإسلام.. الجزية.. الحرب.

فكرة جميلة.. لكنها بعيدة، بل مستحيلة..

ويكفي المسلمين اليوم أن يمتلكوا جزء مما يمتلك غيرهم من القوة النووية ليحدثوا توازناً، ويؤمّنوا رقعتهم، ويدافعوا عن مائهم أشطان العداء الخارجي، وبذلك تكون لهم الهيبة التي تمنع الغير، مهما كان، من التدخل في شؤونهم أو في خياراتهم.

إن امتلاك المسلمين أسباب القوة يعني ميلاد واقع جديد قائم على الاعتبار والهيبة، إن لم نقل الاحترام.. وبذلك تعود للأقاليم وللأمم سيادتها. وتعود للمسلمين سيادتهم، فينتهي غيرهم عن احتقارهم أو إملاء ما يريد عليهم، أو التدخل حتى في مقدساتهم ومقررات شريعتهم.

إن هذا التدخل الأمريكي أو الغربي السافر في مقررات الشريعة باعتبار الإسلام دين تخلف، وأن الجهاد همجية حتى ولو كان رداً للعدوان، كما في فلسطين، وأن الحدود الشرعية كقطع يد السارق وجلْد الزاني وقتل القاتل المتعمد، كلها يجب أن تختفي من العالم المتحضر لأنها مساس بحقوق الإنسان، قلت أن هذا التدخل لا يمكن أن ينتهي إلا برسم المسلمين لخطوط حمراء ملونة بالقوة لا بالكلام..

إننا هنا نرجع إلى السيرة العطرة فنرى أن قريشاً والمشركين ما كانوا ينالون في العادة إلا من المستضعفين الذين لا منعة لهم من أمثال بلال وعمار، والقوة للمسلمين تعني اليوم تأمين الذات لا إلزام الآخر وقهره وأخذ الجزية منه.

إن الكثير من الشباب المسلم يرون أن إقامة دولة إسلامية اليوم في أي بقعة جغرافية محدودة، ضيقة أو واسعة من هذا العالم معناه التمكين وتطبيق شعار «الإسلام أو الجزية أو القتال» الذي هو شعار ملتصق بالدولة في السيرة النبوية الشريفة.

والحقيقة أن الدولة لا تعني التمكين، وقد تأخذ الدولة مجرد شكل إداري لتنظيم حياة الناس، كما أنها قد تكون بألف من المواطنين، والعديد من الدول اليوم لا يتجاوز مواطنوها الخمسة ملايين، فهل لهذه الملايين الخمسة والإمكانيات المتواضعة ما يجعل المرء يفهم أن هذه الدولة تعني القوة؟

إن الوصول إلى تطبيق شرع الله تعالى في أي دولة لا يعني أبداً أن يفهم الذين وصلوا، مهما كانت وسيلتهم للوصول، أن بإمكانهم أن يمارسوا ما كان يمارسه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفاؤه في دولة المدينة المنورة، والذين قد يمارون أو يرفضون أو يتجاهلون هذا

الكلام مطالبون بالإجابة عن سؤال بسيط، وهو:

هل بالإمكان تجييش جيش في تلك الدولة، ليقاتل حتى يقابله البحر، ولا يبقى أمامه من أهل يابسة إلا ودخلوا في أمره إما طوعاً أو كرهاً؟!!

إن هذا الجيش لن يستطيع عبور أول حدود تقابله، وإنْ فَعَلَ واجتاز التخوم بمئات من الأمتار فإن قصة غزو العراق للكويت تبقى الإشارة إليها كافية للجواب والبيان.

وأبعد من هذا نقول: لنفترض أن المسلمين في العالم، أبيضهم، وأسودهم، وأصفرهم، وأحمرهم كانوا وحدة واحدة وأعادوا الخلافة على منهاج النبوة إلى ديارهم.. فما يكون الحال..؟!!

إن عدد المسلمين اليوم مليار ونصف مليار على الأكثر وهم ٦/١ سكان العالم، وبلادهم واقعة في الأجزاء المتعبة من الكوكب الأرضي، حيث يسود الفقر والتخلف والاهتزازات الداخلية والضعف بشتى أنواعه وفي كل مجالاته، فهل تستطيع الخلافة، بهذا الواقع المزري المهترئ أن تأخذ الجزية أو تخوض الحرب ضد الخمسة أسداس الباقية من غيرهم، من شعوب العالم المتقدم المدجج بأبشع أنواع أسلحة الدمار الشامل؟

هل يستطيع مليار ونصف مليار لا تملك دولهم العربية مجتمعة رأساً نووياً واحداً، مواجهة فسطاط الكفر التي تملك إسرائيل وحدها فيها ما يبيد فسطاط الإيمان بكامله؟

هل يمكن مواجهة الولايات المتحدة وروسيا والصين والهند واليابان ودول الاتحاد الأوروبي وبريطانيا وإسرائيل و.. و.. و..؟!!

إن الكثير من الطيبين سيتحدثون هنا عن القوة المعنوية الإيمانية التي

تجعل المسلمين يتغلبون على كل هذه الدول مجتمعة، فقط لأنهم مسلمون... هنا يجب أن نرجع قليلاً إلى غزوة بدر، ففي هذه الغزوة درس رائع وعبرة كبرى.

ففي بدر:

هل انتصر جيش المسلمين الذي قوامه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً على جيش الكفار الذي يزيد على ألف وثلاثمائة مقاتل؟!!

الحقيقة أن ذلك لم يكن رغم أن الجانب الإسلامي كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيار الصحابة، يقابلهم في الجانب الآخر رؤوس الكفر وأعتى عتاة الجهالة والضلالة بقيادة ابن جهل بن هشام.

هل كان انتصار المسلمين قضية محسومة حتى قبل دخول المعركة فقط لأنهم مسلمون وصحابة يقودهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟!

أبداً.. لقد كانت الهزيمة ممكنة، لذلك كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبتهل في تضرع لربه قائلاً: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا». إن هلاك هذه العصابة ممكن، وهو الأمر الذي كان يخافه رسول الله صلى الله عليه وسلم كافتراض ممكن، فيتوجه إلى ربه مبتهلاً حتى يسقط رداؤه عن منكبيه، والصدّيق ـ رضي الله عنه ـ يقول له: «حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك».

ورغم هذا الإلحاح فإن ميزان القوة العسكرية كان مختلاً، فقد كان هنا أربعة مقاتلين مشركين مقابل كل مقاتل مسلم، وهو الأمر الذي يشير إلى اختلال الميزان اليوم في واقع يمثل فيه المسلمون سدس سكان

العالم.. ولئن كان من غير المنطق الناموسي أن ينتصر واحد من الصحابة على أربعة من الكفارفي بدر، فهل يكون من المنطق أن ينتصر اليوم واحد من المسلمين بواقع إيماني مزر على ستة من الكفار؟!

ولم يقل الله تعالى للنصر: «كنْ للمسلمين» ليكون.

إن هناك ناموساً لا يجب أن ينخرق، وهو أن القوة غلابة، لذلك أمر الله بالاهتمام بها: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة..﴾ كان لابد ليحدث النصر للمسلمين أن تتوازن كفتا الميزان الحربي، هذا الناموس الذي لا يجب الاستهزاء به أو تجاهله (تجاوزه) في حساب المعارك بالاتكال على أدبيات المعنويات.

فكيف يمكن لصف المسلمين أن يبلغ تعداده ما عند أعدائهم؟

هنا يتدخل مقاتلون ملائكة ليكونوا إلى جانب المسلمين وليحدث النصر بأسبابه المادية الناموسية، لا بمجرد «كنْ» فيكون، وأوحى الله لنبيه: «إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين».

وأغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رفع رأسه فقال:

«أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثنايا النقع (أي الغبار) وفي رواية إسحاق، قال رسول الله صلى الله عله وسلم: «أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أتاك بعنان فرسه، يقوده على ثناياه النقع»، وينتصر المسلمون بعد ترجيح كفتهم عددياً مقابل أعدائهم، وهذا أمر هام يجب أن لا يغفل عنه المسلمون.